

الفصل العاشر الأعشى

١

قبيلته

ينتسب الأعشى إلى قبيلة بكر بن وائل الكبيرة التي كانت تمتد فروعها وبطونها في شرقي الجزيرة من وادي الفرات إلى اليمامة . ومن أهم هذه الفروع والبطون شيبان ويشكر وجشم وعجل ، ثم حنيفة وقيس بن ثعلبة وكانتا تنزلان في اليمامة ، وتشعب قيس شعباً أهمها مالك بن ضبيعة ومن عشائرهم بنو عبدان وبنو كعب ، وربيعة ابن ضبيعة ومن بيوتهم بنو جحدر ، وسعد بن ضبيعة ولهم ينتمي الأعشى .

وتاريخ عشيرة بني سعد بن ضبيعة في العصر الجاهلي يندمج في تاريخ قبيلتها الكبيرة ، فقد وقعت معها في حروب البسوس التي ظلت أربعين عاماً ، كما وقعت معها في يوم الكلاب ، ودخلت معها بعد هذا اليوم فيما دخلت فيه من الولاء للمنادرة وطالما نصرتهم في حروبهم مع الغساسنة . ولما طلب كسرى أبرويز النعمان بن المنذر احتفى هو وأسرته ببني شيبان إحدى قبائل بكر وخلف عند سيدهم هاني بن قبيصة الشيباني أولاده وسلاحه الذي يقال إنه بلغ نحو ألف درع . وقتل كسرى النعمان كما مرّ في غير هذا الموضع وولى على الحيرة إياس بن قبيصة الطائي ، فتارت شيبان وقبائل بكر ضده وأخذت جموعهما تغير على سواد العراق ، فاضطر كسرى أن ينازلها ، ودارت على جيوشه الدوائر في يوم ذي قار المشهور الذي انتصر فيه العرب على الفرس ، وقد اختلف المؤرخون في توقيت تاريخه (١) .

ولم تشرك قيس بن ثعلبة في هذه الحروب وحدها ، فقد أسهمت مع بني حنيفة

الأثير ٢٩٠/١ والمقد الفريد ١١١/٦ .
وراجع معجم ما استعجم للبكري ومعجم البلدان
لياقوت في « ذي قار » .

(١) انظر في يوم ذي قار الأغانى (طبعة
السامي) ١٣٢/٢٠ والطبرى (طبعة دي غويه)
١٠١٥/١ ، ١٠٢٨/١ وما بعدها ، وابن

وغيرها من البكرين في حروب ضد تميم وغيرها من القبائل . وقد تقع حروب ومناوشات داخلية بين عشائرها ، مثلها مثل بقية العشائر في الجاهلية إذ كانت كثيراً ما تنشب بينها خلافات تؤدي إلى بعض الدماء . ويظهر أنها على الرغم من استقرارها في الإمامة وسكناها بعض القرى مثل « منفوحة » كانت تنزع إلى حياة البداوة وما يتصل بها من رعي الإبل والغنم ، ولعل ذلك ما جعل الأعشى يهجو إياداً في بعض شعره بأنها تعتمد على الزراعة يقول^(١) :

لسنا كمن جعلتُ إيادُ دارها تَكْرِيتَ تنظر حَبَّها أن يُحصداً
 جعل الالهة طعامنا في مالنا رزقاً تضمَّنه لنا لن ينفداً^(٢)
 مثل الهضاب جزارةً لسيوفنا فإذا ترأع فإنها لن تُطردا^(٣)
 ضمَّنتُ لنا أعجازهن قُدورنا وضروعهن لنا الصريح الأجرداً^(٤)

وواضح أنه يصرِّح بأن إياد تعتمد على الزراعة والحصاد ، أما هم فما لهم الإبل التي لا تنفد ، وهي إبل ضخمة كالهضاب ، يعقرونها لضيوفهم ، ولا يلم بها من يروعها أو يغير عليها خوفاً من بسالتهم ، وهي تملأ قُدورهم بلحمها وبيوتهم بألبانها .

وعلى العكس كان أبناء عمومتهم من بني حنيفة أكثر استقراراً ، وقد اتخذوا الحَجْر قصبيةً لهم ، وكان سيدهم في أواخر العصر الجاهلي هوذة بن علي ، وكان يحمي القوافل الفارسية في طريقها إلى اليمن ، ولعله من أجل ذلك وقف بعيداً بقبيلته عن يوم ذي قار ، فلم تشرك فيها . وأغلب الظن أن هذه القبيلة لم تعتمد على الرعي وحده شأن قبيلة الأعشى ، بل كانت تعتمد أيضاً على الزراعة ، فكانت نصف حضرية . وقد شاعت فيها النصرانية ، أما قيس بن ثعلبة فظلت في جملتها وثنية تعبد الأصنام . وليس هذا كله ما بينهما من خلاف ، فبينما حنيفة لا يُعرف

(١) ديوان الأعشى طبعة جابر . القصيدة

رقم ٣٤ ، الأبيات : ٣٣ وما بعده .

(٢) المال هنا : الإبل .

(٣) جزارة : مصدر جزره أي ذبحه ومنه

يسمى البعير جزوراً .

(٤) الصريح : اللبن الخالص . الأجرد :

الصافي .

لها شاعر مذكور في الجاهلية^(١) إذا قيس كثيرة الشعر والشعراء ، وقد يكون ذلك بسبب بدو قيس وكثرة الحروب التي عانتها ، يقول ابن سلام : « وبالطائف شعر وليس بالكثير ، وإنما كان يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الأحياء . والذي قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم نائرة ولم يحاربوا ، وذلك الذي قلل شعر عُمان^(٢) » ونقول أيضاً إنه الذي قلل شعر حنيفة في الإمامة .

أما قيس بن ثعلبة فقد كانت كثيرة الحروب ، فكانت تغير ويُغار عليها ، وفي أثناء ذلك ينشد لها شعراؤها القصائد والأناشيد الحمسة ، فما الشعر فيها وازدهر ، وقد اشتهر فيها غير شاعر من مثل المرقش الأكبر والمرقش الأصغر والمتلمس وابن أخته طرفة والمسيب بن علس . وقد أنشدنا في غير هذا الموضع قطعة طرفة في المعلقة التي يصور فيها فتوته وأنه ينفق حياته في الكرم والحرب والنساء والخمر . ونجد هذه الروح في شعر المرقشين ، كما نجد عندهما غزلاً تخفيفاً رقيقاً ، ولكل منهما قصة عشق مأثورة .

٢

حياته

عاش الأعشى في أواخر العصر الجاهلي ، وليس بين أيدينا شيء واضح عن نشأته ، وكل ما يقوله الرواة أنه وُلد بمنفوحة في الإمامة وأن أباه كان يلقب بقتيل الجوع « لأنه دخل غاراً يستظل فيه من الحرّ ، ف وقعت صخرة عظيمة من الجبل ، فسدت فم الغار ، مات فيه جوعاً ، وفي ذلك يقول جهنم يهجره ، وكانا يتهاجيان :

أبوك قتيل الجوع قيس بن جندل وخالك عبء من خُماعة راضع^(٣)

وخُماعة - فيما يظهر - جدُّ بعيد لأمه ، وهي أخت المسيب بن علس ، وعنه حمل الشعر الأعشى ، إذ كان راويته ، ولا شك في أنه روى لغيره من شعراء قبيلته ، فهو امتداد لهم جميعاً .

(٣) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٠٨/٩ .

(١) ابن سلام ص ٢٣٤ .

(٢) ابن سلام ص ٢١٧ .

واسم الأعشى ميمون ، وإنما سمي الأعشى لضعف بصره ، ومن أجل ذلك كان يكنى بأبي بصير^(١) . وإذا كنا لا نعرف شيئاً واضحاً عن نشأته فإنه يتبين لنا من أخباره ومن اسمه « صنّاجة^(٢) العرب » أنه انتقل بالشعر الجاهلي ثقلة ، فإن كلمة صنّاجة تعني أنه كان يتغنى بشعره ، ويبالغون في ذلك حتى يجعلوا كسرى يستمع لبعض غنائه فيه^(٣) !!

وتدلّ أخباره وأشعاره على أنه كان كثير التنقل والأسفار البعيدة في أنحاء الجزيرة يمدح ساداتها وأشرفها ، وفي ديوانه مديح للأسود بن المنذر وأخيه النعمان وإياد بن قبيصة الطائي وإلى الخيرة من بعده ، ويظهر أنه كان يقيم بها كثيراً . وفيه أيضاً مديح لقيس بن معديكرب الكندي ولسلامة ذى فائق أحد أمراء اليمن ولبنى عبد المندّان بن اللحيان سادة نجران ولهوذة بن علي سيد بني حنيفة . وكان يقد على سوق عكاظ ، ويمدح من يمرّ به في طريقه إليها من شيوخ العرب وأشرفهم^(٤) .

ولا يكتفى الرواة بما يدل عليه شعره من الرحلة إلى الخيرة واليمن وديار كندة في حضرموت ونجّران وعكاظ بل يذهبون به إلى الفرس وعمان وبلاد الشام متغلغلا فيها إلى حمص وأورشليم (بيت المقدس) ويمتازون به البحر إلى نجاشي الحبشة ، ويُسجرون على لسانه شعراً يتحدث فيه عن هذه الرحلات البعيدة ، فيقول^(٥) :

وقد طُفْتُ لِلْمَالِ آفَاقَهُ عُمَانَ فَحِمَصَ فَأُورِشَلِيمَ
أَتَيْتُ النَّجَاشِيَّ فِي أَرْضِهِ وَأَرْضَ النَّبِيطِ وَأَرْضَ الْعَجَمِ

وأكبر الظن أنه لم يصنع شيئاً من ذلك وأنه إنما اقتصر في أسفاره ورحلاته على أطراف اليمن ونجد والخيرة يمدح شيوخ العرب وساداتهم . ووقع — كما يقول الرواة — في بعض رحلاته بديار بني عامر ومعه هداياه من بعض ممدوحيه ، فخشى على نفسه وعلى هداياه ، فاستجار بعلقمة بن عُلّانة ، فقال له قد أجرتك ، فقال له الأعشى من الجن والإنس ؟ قال : نعم ، قال الأعشى : ومن الموت ،

(١) ذهب ابن قتيبة إلى أنه كان أعمى .
انظر الشعر والشعراء (طبع دار المعارف) ٢١٢/١ .
(٢) أغاني ١٠٩/٩ .
(٣) أغاني ١١٥/٩ والشعر والشعراء ٢١٤/١ .
(٤) أغاني ١١٣/٩ وما بعدها .
(٥) ديوانه القصيدة رقم ٤ وقارن بالقصيدة رقم ٦٣ .

فقال : لا . وتمضى القصة فتذكر أن علقمة كان قد اختلف مع ابن عمه عامر ابن الطَّمْثَيْلِ على سيادة القبيلة ، وتنافرا منافرة حادة ، اشترك فيها كثير من الشعراء ، فكان مع علقمة مروان بن سُراقَة والحطيئة ومع عامر ليبيد الشاعر المشهور . ولما لم يُجِرْ علقمة الأعشى من الموت أتى عامر بن الطفيل فقال له : أجزيتني قال : قد أجزتكَ . قال : من الجن والإنس ؟ قال : نعم . قال : ومن الموت قال : نعم . قال : وكيف تجيرني من الموت ؟ قال : إن مت وأنت في جوارى بعثت إلى أهلِكَ الدية ، فقال : الآن علمت أنك قد أجزيتني من الموت . فمدح عامراً وهجا علقمة^(١) .

والأعشى في شعره لا يعيش لمديح السادة والأشراف وأخذ نوالهم فحسب ، بل هو يعيش أيضاً لقبيلته ومنازعاتها الكثيرة مع بكر ضد الفرس ، ففي ديوانه مطولة يهددهم فيها ويتوعدهم كما يتوعد من يقف معهم من العرب مثل إيباد^(٢) ، وهو يعيش كذلك في منازعات قبيلته مع بني شيبان ، فيتعرض بالوعيد والتهديد ليزيد بن مُسَهَّرِ الشيباني ، على نحو ما تصور ذلك معلقته . فإذا حدثت منازعات صغرى بين عشيرته وأبناء عمومته من عشائر قيس بن ثعلبة ناصرها ذاكراً ما بينهم وبينها من أواصر الرحم ، على نحو ما نرى في قصائده التي وجهها إلى بني جَحْدَرِ وبني عَبْدَانَ . وقد اصطدم عند الأخيرين بشاعرهم جُهَنَّم ، فتهاجيا طويلاً .

ويقال إنه لما سمع بالرسول صلى الله عليه وسلم وانتصاراته وانتشار دعوته رغب في الوفود عليه ومديحه ، وعلمت قريش بذلك فتعرضت له تمنعه ، وكان مما قاله له أبو سفيان بن حرب : إنه يهاك عن خلال ويحرمها عليك ، وكلُّها بك رافق ولك موافق ، قال : وما هنَّ ؟ فقال أبو سفيان : الزنا والقمار والرِّبَا والخمر . فعدل عن وجهته ، وأهدته قريش مائة من الإبل ، فأخذها وانطلق إلى بلده معرضاً عن الرسول ودعوته ، فلما كان بقاع منفوحة رمى به بعيره ، فقتله^(٣) سنة ٦٢٩ للميلاد . وهذه الخلال التي ذكرها أبو سفيان والتي جعلته يصدّ عن لقاء الرسول الكريم تدل على أنه كان وثيقاً مغروراً في وثيقته ، وفي شعره نفسه ما يصور معالم هذه الوثنية ،

(١) انظر في هذه المنافرة وصلة الأعشى بها الأغاني (طبعة السامى) ٥٥/١٥ وديوان الأعشى ص ١٦٥ .

(٢) الديوان ، القصيدة رقم ٣٤ .
(٣) أغاني ١٢٥/٩ وما بعدها والشعر والشعراء ٢١٢/١ .

إذ نراه كثير الحديث عن القيان مثل هُرَيْرَةَ وَقَسَيْلَةَ وَجَبَّيْرَةَ ، بل إنه ليتحدث عن البغايا اللاتي يبعن أعراضهن^(١) ، ويقرنه ابن سلام في هذا الصدد بامرئ القيس فيقول : « وكان من الشعراء من يتأله في جاهليته ويتعفف في شعره ولا يستبر بالفواحش . . ومنهم من كان يتعهر ولا يبتى على نفسه ولا يتستر ، منهم امرؤ القيس ومنهم الأعشى^(٢) » . وقد تمدح في شعره كثيراً بالقمار كقوله مفتخراً بعشيرته^(٣) :

من شبابٍ تراهمُ غير ميلٍ وكهولاًٍ مَرَجِحاً أحلاماً^(٤)
ولقد تُصَلِّقُ القِدَاحُ على الذِّيبِ إذا كان يَسْرُهُنَّ غَرَاماً^(٥)

فهم يضرّبون قداح الميسر على النوق الضخمة التي يتأبى غيرهم أن يضرّبها عليها اعتزازاً بها . أما الخمر فهو أكبر شاعر تغنى بها في الجاهلية .

وطبيعي لمن تكون حياته على هذا النحو من المحن والإثم فيه أن يكون وثنيّاً متعمقاً في وثنيته وأن لا يعتنق الإسلام ولا غير الإسلام من الأديان السماوية ، وقد زعم لويس شيخوانه كان نصرانياً ، وشاركه في هذا الزعم بعض المستشرقين مستدلين على ذلك بأنه كان يمدح أساقفة نجران ويتصل بالبيئات المسيحية في الحيرة وبمثل قوله في القصيدة رقم أربع وثلاثين :

رَبِّي كَرِيمٌ لا يَكْدُرُ نِعْمَةً وإِذا يَنَاشِدُ بالمَهَارِقِ أنْشَدَا

والمهاريق هنا الصحف الدينية . فكأنه يعترف بأنه نصراني ، ترتّل لربه الأناشيد الكنسية ، غير أن هذا ليس حتماً ، فقد تكون لدى الوثنيين من الجاهليين مهاريق كانوا يتلون فيها بعض أديعتهم ، وقد يكون البيت دخيلاً على القصيدة ، وسنعرف بعد قليل أن راوي ديوانه كان مسيحياً ، وأغلب الظن أنه هو الذي أدخل هذا البيت في القصيدة ، كما أدخل في قصيدة أخرى قسّمه بالمسيح في قوله^(٦) :

- (١) الديوان ، القصيدة رقم ٢٢ .
(٢) ابن سلام ص ٣٤ ويستبر في الفواحش :
يتبيح يذكرها ويفصح عما حقه أن يكتّم .
(٣) الديوان ، القصيدة رقم ٣٨ .
(٤) ميل : جمع أميل وهو الجبان . مراجعاً :
راجعي العقول .
(٥) تصلق : تضرب . النبيب : الإبل الكبيرة .
الميسر : القمار .
(٦) انظر الديوان ، القصيدة رقم ٢٣ .
البيت ١٦ .

وإني ورب الساجدين عشيّةً وما صك ناقوس النصارى أبيلها^(١)

وقد جعله في قصيدة ثالثة يقسم براهب الثلج ، بل بثوبه^(٢) . وقد يكون في ذلك ما يدل على أن القصيدتين جميعاً موضوعتان فقد كان الأعشى وثنياً غالباً في وثنيته ، كما تدل على ذلك خلاله التي وصفناها في شعره ، وأيضاً أقسامه الوثنية التي رواها نفس هذا الراوي المسيحي ، إذ نراه يقسم بالكواكب والنجوم^(٣) ، كما يقسم بالكعبة التي يحج إليها العرب وبما يهدون إليها من القرابين في مثل قوله^(٤) :

إني لعمر الذي خطت مناسمها تخدي وسبق إليه الباقر الغيل^(٥)

والحق أنه لم يكن نصرانياً ، إنما كان وثنياً على دين آبائه ، وقد احتفظ في وثنيته بكل ما كان فيها من إثم وفجور .

٣

ديوانه

للأعشى ديوان كبير نشره جابر في لندن^(٦) سنة ١٩٢٨ وقد اعتمد في نشره على مخطوطة في الإسكوريال برواية ثعلب المتوفى سنة ٢٩١ للهجرة ثم مخطوطة دار الكتب المصرية ونسختين نقلتا عنها في استراسبورج وزاخو ، ومخطوطة في باريس وأخرى في لندن . وأضاف إلى الديوان ملحقين بما وجدته من شعر الأعشى في كتب الأدب وما وجدته من أشعار لمن لقبوا بالأعشى وهم كثيرون .

وكان اعتماده الأساسي على مخطوطة الإسكوريال ، لأنها برواية ثعلب ، وعلى الرغم من أنها تنقص أوراقاً من نهايتها تحتفظ للأعشى بسبع وسبعين قصيدة ومقطوعة . وقد أضاف إليها خمس قصائد من المخطوطات الخمس الأخرى ، وجميعها تتفق في رواية خمس عشرة قصيدة له . كما تتفق في أنها مجهولة النسب . ولذلك لا يمكن الاعتماد

(١) جمع منم وهو طرف الخف . تخدي : تسرع في السير مع اضطراب . الباقر : اسم جمع البقر . الغيل : جمع غيول وهو الكثير . (٦) شرح محمد حسين هذا الديوان ونشره بمكتبة الآداب بالقاهرة سنة ١٩٥٠ .

(١) صك : ضرب . الأيل : الراهب .
(٢) القصيدة رقم ١٥ البيت ٤٤ .
(٣) القصيدة رقم ٢٧ البيت ١٨ .
(٤) القصيدة رقم ٦ البيت ٦٢ .
(٥) خطت : شقت التراب . المنام :

على هذه المخطوطات وأغلب الظن أنها مختارات جُمعت من نسخة ثعلب ، وليس رواية مقابلة لها . وقد صورت دار الكتب المصرية مخطوطة من المكتبة المتوكلية اليمنية بها ست وأربعون قصيدة ومقطوعة للأعشى ، ويفجؤنا كاتبها في فاتحتها بأن هذا كتاب فيه من شعر الأعشى ، فهي لا تتضمن ديوانه إنما تتضمن مختارات منه ، وهي مختارات تدل على أنها جُمعت من نفس الرواية الكوفية ، وإن كنا نجد فيها قصائد غير مثبتة في رواية ثعلب ، ولكن هذا لا يقوم دليلاً على أنها لم تشتق من روايته ، فروايتة التي نشرها جابر كما قدمنا غير كاملة : إذ تنقص بعض أوراق . ومعنى ذلك أننا نفتقد في شعر الأعشى الرواية البصرية ، فما عدا القصيدتين رقم ٦ ، ١١ فقد نصَّ شارح الديوان على أن أبا عبيدة قرأ الأولى على أبي عمرو بن العلاء وأن الأصمعي سمع أبا عمرو ينشد الثانية حفظاً ، ونصَّ الشارح أيضاً على أن القصائد ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٥٧ ، ٦٥ ، ٦٦ برواية أبي عمرو ، وظن جابر - كما ذكر في مقدمته - أنه أبو عمرو بن العلاء ، وليس بصحيح إنما هو أبو عمرو الشيباني ، فهو الذي كانت تُروى عنه الدواوين ، وهو راوية كوفي ينقل عنه السكري وثعلب وأضرابهما من رواة الدواوين . على أن الشارح نصَّ في القصائد ١ ، ٢٩ ، ٣٤ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ أنها من رواية أبي عبيدة البصري ، وإن كنا نلاحظ أن القدماء شكوا في القصيدة رقم ٦٠ وقالوا إنها لابن دأب^(١) . على كل حال ليس بين أيدينا رواية بصرية كاملة للديوان ، إنما بين أيدينا رواية كوفية فيها إشارات إلى بعض ما تضمنته الرواية البصرية .

فإذا لاحظنا أن الرواية الكوفية للشعر الجاهلي غير دقيقة وأنها تتزيد فيه كما لاحظنا سابقاً في دواوين امرئ القيس والنابعة وزهير كان من الواجب ألا نقبل روايتها للديوان الأعشى دون احتياط واحتراس شديد ، وقد تصادف أن روايته الذي حملته عنه وأذاعه في الناس كان نصرانياً معسراً هو يحيى^(٢) أو يونس بن متى وأن هذا الراوي من الممكن أن يكون قد عبث بالديوان فأدخل فيه ما ليس منه ، ليزيد بعض المعاني المسيحية ، وقد رُوِيَ عنه أنه كان يقول : « كان الأعشى قد ربياً إذ يقول :

استأثر الله بالوفاء وبالعدل وولّى الملامة الرجال

(١) الديوان ص ٢٠٧ . (٢) الأغاني ١١٢/٩ ومصادر الشعر الجاهلي ص ٢٣٨ .

فسأله سائل : من أين أخذ الأعشى قوله ومذهبه فأجاب : « من قبيل العباديين نصارى الحيرة ، كان يأتهم يشتري منهم الخمر ، فلقنوه ذلك ^(١) » .
ويبعد أن يكون الأعشى حقاً قد تغلغل نظره كل هذا التغلغل ، فإذا هو يقول بالقدر وأن الإنسان حرٌّ في تصرفاته ، ولا يكتفى بذلك ، بل يقول بالعدل على الله كما تقول المعتزلة ، والمعقول أن يكون يحى هو الذى وضع البيت ، بل لقد شك ابن قتيبة في القصيدة جميعها ، وقال بعد أن روى طائفة من أبياتها هذا شعر منحول ^(٢) . وينبغى أن نشك كما شك ابن قتيبة في قصائد الأعشى الأخرى التى تصور أفكاراً مسيحية أو أفكاراً إسلامية ، أما الأفكار المسيحية فلأن راويه الذى نشره نصرانى ، وأما الثانية فلأنها معان جديدة لم تعرفها الجاهلية ، لا هى ولا كل ما يتصل بها من ألفاظ القرآن وأساليبه . ويصور ذلك تصويراً واضحاً قصيدته رقم ١٧ التى قالوا إنه مدح بها الرسول صلوات الله عليه ، مع أنه — كما قدمنا — لم يلقه وصدته قريش عن لقائه ، وبمجرد أن نقرأ القصيدة وقوله فيها :

إذا أنت لم ترحل بزادٍ من التقي
ندمت على أن لا تكون كمثل
فإياك والحيثات لا تأكلنها
وذا النصب المنصب لا تنسكنه
وصل على حين العشيات والضحي
ولا السائل المحروم لا تتركه
ولا تسخرن من بانس ذى ضرارة
ولا تقربن جارة إن سيرها
ولاقيت بعد الموت من قد تزودا
وأنت لم ترصد لما كان أرصداً ^(٣)
ولتأخذن سهماً حديداً لتفصداً ^(٤)
ولا تعبد الأوثان والله فاعبداً ^(٥)
ولا تحمد الشيطان والله فاحمداً
لعاقبة ولا الأسير المقيداً
ولا تحسبن المرء يوماً مخلدًا ^(٦)
عليك حرام فأنكحن أوتابداً ^(٧)

الكعبة ويقدمونها أو هي الأوثان .
(٦) الفرارة : ذهاب البصر أو النقص في الأنف والأموال .
(٧) السرهن : البضع . النكاح : الزواج .
التأبد : البعد عن النساء والتعزب .

(١) الأغاني ١١٣/٩ وما بعدها .
(٢) الشعر والشعراء (طبعة دار المعارف) ص ١٤ .
(٣) أرصد : أعد وهيا .
(٤) يشير إلى أنه لا بد من الذبح كما تقضى تعاليم الإسلام .
(٥) النصب : حجارة كانوا ينصبونها حول

نعرف ترواً أنها موضوعة ، لأنه فيا يدعو إلى تعاليم إسلامية فحسب ، بل لأنه ينظم فيها آيات قرآنية من مثل قوله تعالى : (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى) وقد نظم في البيتين الثالث والرابع قوله تعالى : (حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهيل لغير الله به) أما في البيت الخامس فنظم قوله تبارك وتعالى : (واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والإبكار) . ونظم في البيت السادس قوله جعل عزز : (والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) . وفي البيت السابع نظم قوله جعل ذكره : (يا أيها الذين آمنوا لا يستخزروا قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم) أما البيت الثامن فنظم فيه مثل قوله تعالى : (ولا تتعربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا) وقوله : (وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله) .

وواضح من هذا كله أن القصيدة منتحلة ، وهي لا تتفق في شيء ونفسية الأعشى ، وما كان لسمع القرآن ويؤمن بتعاليمه على هذا النحو ، ثم ينصرف عن رسوله الكريم وهديه . ونحن لا نشك فقط في هذه القصيدة ، بل نشك كذلك في القصائد الأخرى التي تردّد معاني الإسلام ومثاليته الخلقية أو تردّد بعض المعاني المسيحية . وبهذا القياس نهم قصيدته رقم ٥ لقوله فيها يمدح قيس بن معد يكرب الكندي :

وما أَيْبُلِيٌّ عَلَى هَيْكَلٍ بِنَاهُ وَصَلَّبَ فِيهِ وَصَارَا^(١)
يُرَاوِحُ مِنْ صَلَوَاتِ الْمَلِيكِ طَوْرًا سَجُودًا وَطَوْرًا جُورًا^(٢)
بِأَعْظَمِ مِنْهُ تُقَى فِي الْحِسَابِ إِذَا النَّسَمَاتُ نَفَضْنَ الْغُبَارَا

وواضح أنه يصفه بالتقوى وأنه يراقب ربه ، ويقول إن الراهب الذي يصلب له في هيكله ويصلى له ساجداً ويتضرع ليس أعظم منه تقوى وخشية ، حين تهب الرياح اللينة نافضة للغبار . وقد نظم منتحلها قوله تعالى : « فإنه يعلم السر وأخفى » فقال :

عطاء الإله فإن إلا ه يسمع في الغامضات السرا

(١) صور الصليب بيده . صار : سكن .
(٢) الجوار : التضرع بالدعاء .

(١) أيبلي : راهب . الهيكل : موضع في
صدر الكنيسة توضع فيه القرابين . صلب :

ومثلها القصيدة رقم ١٥ التي أنشد فيها متحلها قسمه بثوبى راهب اللج فقال :

وإني وثوبى راهب اللج والتي بناها قصى والمضاض بن جرهم^(١)
 وحققاً أنه أضاف إلى ثياب الراهب القسم بالكعبة ، ولكن مما يزيد الشبهة في
 القصيدة أننا نجد فيها هذا البيت ، يهجو به خصمه :

وما جعل الرحمن بيتك في العلاء بأجساد غربى الفناء المحرم^(٢)
 ولم تشع كلمة الرحمن بين الشعراء إلا في الإسلام أخذاً من قوله تعالى :
 (بسم الله الرحمن الرحيم) ، وقد دارت في القرآن الكريم . ونقف نفس الموقف من
 القصيدة رقم ٢٣ للبيت الذى مر بنا والذي يقسم فيه بالمسيح وضرب الراهب
 للناقوس ، وما لا شك فيه أن قوله في قصيدة النعمان رقم ٢٨ :

فلا تحسبني كافراً لك نعمة على شهيد شاهد الله فاشهد
 مما يضعفها ، لأنه يلخص فكرة الملائكة الشاهدين المعروفة في الإسلام .
 وقد شك ابن قتيبة في القصيدة رقم ٣٥ وبها بيت القلر الذى أنشده يحيى بن متى
 فيما أسلفنا . وتكاد تكون القصيدة رقم ٦٦ في كثير من أبياتها نظماً لمواد قرآنية على
 هذه الشاكلة :

وربك لا تشرك به إن شركه يحط من الخيرات تلك البواقي
 بل الله فاعبد لا شريك لوجهه يكن لك فيما تكدرح اليوم راعيا
 وقد مضى واضعها يدعو إلى تقوى الله وصلته الرحم ورد الأمانات إلى أهلها
 والتعفف عن الجارة ، ويقول محذراً من معصية الله : « فلانك لا تخنى على الله
 خافياً » ويقول أيضاً : « كفى بكلام الله عن ذلك ناهياً » . فلاشك في أن هذه القصيدة
 إسلامية . على أنها تلفتنا إلى شيء مهم ، وهو أن الأعشى أضيفت إليه أشعار
 تذهب مذهب العظة والاعتبار ، ولا نرتاب في أن يحيى بن متى لعب في ذلك

(٢) أجياد : موضع في بطحاء مكة ، والفناء
 المحرم : حرم مكة .

(١) اللج : غدير عند دير هند . ويريد
 بثوبيه أعماله الصالحة . ومعروف أن أمر الكعبة
 كان إلى جرهم ثم صار إلى قصى .

دوراً كبيراً ، وقد تبعه القُصَّاصُ والوعاظ المسلمون يزيدون في النسيج خيوطاً ، فإذا الأعشى كأنه واعظ من وعاظ الكوفة ، يتحدث إلى الناس حديث عظة عن الدهر وتقلباته والموت وما طوى من الملوك وأسباب ترفهم ونعيمهم ، وكيف يأتي على الناس ، فالكل إلى فناء ، ولا يبقى سوى وجه ربك ذي الجلال والإكرام . ولا يبدو ذلك في قصيدة من ديوانه أو قصيدتين ، بل إنه يجرى في قصائد كثيرة ، وأقرأ قصيدته ذات الرقم ٢ فإنك ستراه يستلها بالحديث عن حياة الإنسان وما يليق فيها من العناء والشقاء بالموت وما ينزل به من الأمراض والأحزان ، وكيف أن أحداً لا يستطيع الفرار من المنية ، ويسترسل في الحديث عن مات من الملوك الأولين . وفجأة يخرج إلى الحديث عن لذاته . ولعل من الطريف أن القدماء أنكروا القصيدة^(١) . ومثلها القصيدة رقم ٤ وفيها يتحدث عن طوافه في البلاد ، وقد أنشدنا منها فيما مر البيتين اللذين يذكر فيهما أنه زار أوريشليم والنجاشي في أرضه ، ولكن ليس هذا هو الذي نقف عنده فحسب ، فقد مضى يتحدث عن قصة حصن الحضرم وتخریب سابور له بجنوده ، ويُنهي قصته تلك بقوله

وفي ذلك للموتى أسوة . ومأربُ قفى عليها رِمٌ^(٢)

ويعنى في هذه القصة قصة سد مأرب وخرابه وتشتت حمير في البلاد ، متخذاً من ذلك عظة جديدة . وعلى هذا المثال قصيدته رقم ١٣ وفيها يحدثننا عن زرقاء اليمامة وكيف عصاها أهلها ولم يأتروا بأمرها حين خوفهم جيوشاً قادمة ، هي جيوش حسان تُبَع ، وقدمت الجيوش فجعلت عاليها سافلها وحطمتهم حطماً ، وقد شك القدماء في القصيدة وأنكروها^(٣) . وليس في القصيدة رقم ١٤ ذكر للملوك الأولين ، ولكنها تحمل وصية خلقية بها كثير من الخيوط الإسلامية تجعلها أشبه بموعظة ، إذ لا يعد القريب قريب النسب ، وإنما هو قريب الود والبر ، ويقول إنه ليس عاقباً ولا ذا نعمة ، وإنه لا ينتظر من الناس جزاءه وإنما ينتظره من ربه . ومثل هذه المعاني تجعلنا نشك فيها كما نشك في القصيدة رقم ٣٣ وفيها حديث طويل عن فناء الحياة وأن كل شيء فيها إلى زوال ، فالكل هالك كما هلك ساسان

(٣) الموشح ص ٤٩ .

(١) انظر الموشح للمرزبان ص ٤٩ .

(٢) العرم : سيل مشهور .

ملك الفرس ومورق ملك الروم وكسرى شاهنشاه ، وهذا عادياء لم يغنه حصنه بتيها
الذى بناه سليمان ، ويسهب في وصف الحصن ، وكذلك كان أمر النعمان إذ لم
تنفقه أمواله ولا ما كان يُبجى إليه ، فلم يَسْتَجُ من القضاء . ومن هذا النمط نفسه
قصيدته رقم ٣٦ التي يقول فيها :

إنما نحن كشيء فاسدٍ فإذا أصلحه الله صلح
ويحدثنا عن هلاك الملوك الأولين مثل عمرو بن هند حديثاً كله عظة واعتبار ،
فإن الناس هالكون لا محالة ، وكذلك يصنع في قصيدته رقم ٣٩ ، ومثلها رقم ٥٣
أما القصيدة رقم ٥٤ فإنه يتحدث فيها عن قصر ريمان قصر الحميريين الذى تداوله الحبش
والفرس وما أصابه من البلى والخراب . وقد أنكر القدماء نسبة المقطوعة رقم ٥٦^(١)
إليه كما أنكروا أختها رقم ٦٠ وأشرنا إلى ذلك فيما أسلفنا ، وأبيات الأخيرة تختلط
بأبيات القصيدة رقم ٧٢ ولذلك كنا نتمها هي الأخرى ، وأنكر القدماء القصيدة
رقم ٦٢ وقالوا إنها تختلط بشعر لنايعة بنى شيبان^(٢) . ونراه في القصيدة رقم ٧٩
يدعو لإيلاس بن قبيصة أن يجزيه الله جزاء نوح إذ أوحى إليه أن يصنع الفلك
ليحصنه من الطوفان . وتلتقى في نهاية الديوان بالقصيدة رقم ٨٢ وهى تلتقى في بعض
أبياتها بقصيدة رواها المفضل الضبي في المفضليات لعوف بن الأحموص وهى فيها ذات
الرقم ٣٦ ونسب الجاحظ بعض أبياتها في الحيوان إلى مضر^(٣) بن زرارة
ابن لقيط .

وليست هذه القصائد وحدها في الديوان هي التي ينبغي أن لانطمئن إليها ، لما
يداخلها من الوعظ والمعاني الإسلامية والمسيحية ، فقد أضاف إليه الرواة الموضوعون
غير قليل من القصائد والأشعار ، ويمكننا معرفة وضعها من عرضها على تقاليد
الشعر الجاهلي وأسلوب الأعشى نفسه في مطولاته التي لا يعثورها الشك . وقد تأخذ
القصيدة شكلاً قصصياً غير مألوف لدى الشعراء الجاهليين . وإذا أخذنا نقرأ في
الديوان على هذه الأسس وجدنا غير قليل من القصائد يستوقفنا ، من ذلك القصيدة
رقم ١٢ لما يصور فيها من قصة عماء وقائده ، وتدل رحلاته الكثيرة أنه كان ضعيف

(٢) الديوان ص ٢٠٨ .

(٣) الحيوان ٧٨/٥ .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٦٦/١ وانظر

الديوان ص ٢٠٤ .

البصر ولم يكن مكثوفاً ، ومثلها القصيدة رقم ٢٠ للين أسلوبها وضعفه ، وهو أشبه بأساليب العباسيين . ونراه في القصيدة رقم ٢٥ يسوق في تفصيل قصة السموأل وما كان من إيداع امرئ القيس عنده مائة درع قبل رحيله إلى قيصر وحصار الحارث بن ظالم أو الحارث الغساني له حتى يأخذها وتحصنه منه بحصنه ، ومفاجأته له بأحد أبنائه ، وكان يصطاد ، وقوله له إما أن تسلم الأذراع إلىّ وإما أن أقتل ابنك ، وأبي السموأل أن يسلم الأمانة وفاءً ، وقتل الحارث ابنه تحت عينه . وهي قصة مشكوك في أصلها ، ويزيدها شكاً في قصيدة الأعشى أنه رواها مفصاة بصورة تدل على أنها موضوعة ، وربما وضعها أحد أولاد السموأل في الإسلام ، ومن أجل ذلك نشك في القطعة رقم ٢٤ التي تقدم لها . وإذا تقدمنا في الديوان وأعدنا النظر في القصيدة رقم ٣٩ التي أهمناها لما فيها من حديث عن هلاك القرى والأمم لاحظنا أنها تتضمن في نحو عشرين بيتاً قصة غزلية ، يصور لنا فيها كيف بعث لصاحبه رسولا شيطانياً لا يخشى الرعباء ، وكيف تخلص إليها هذا الرسول فنازعها الحديث مخافاً ، حتى إذا أنكرته ظل يغويها حتى أسلس له قيادها ، فشاورها متى يأتيها الأعشى وكيف يدخل إليها ، ويحدثنا أنه ألم بها وقد غفل الرعباء ، وبات إلى جنبها لا يفصلهما حجاب ، ويمضي فيصف مبيته عندها وصفاً صريحاً . وليس من ريب في أن هذه القصة تعلن بدورها عن انتحال القصيدة وأنها موضوعة ، ولكن ليس هذا ما نريده ، إنما نريد أن نقول إنه ينبغي أن نشك فيما يجرى مجرى هذه القصيدة المنتحلة وقصتها الغزلية . ومن أجل ذلك كنا نشك في القصيدة رقم ٥٢ وخاصة أنها غزل ووصف خالص ، وليس لها موضوع من مديح أو فخر أو هجاء كما تعودنا عنده ، ولما يزيدنا شكاً فيها استرساله في الخيال مع كل ما يشبه صاحبه به ، وخاصة حين شبه مذاق ريقها بطعم الزنجبيل والتفاح ممزوجين بعسل النحل ، فقد أخذ في وصف من يشتر العسل ويجنيه ، ولم يكن العسل واشتياؤه مما تُعرّف به قيس بن ثعلبة في الجاهلية ، إنما كانت تعرف به هذيل . ونقف نفس الموقف من القصيدة رقم ٥٥ لكثرة ما فيها من ألفاظ فارسية ، وكذلك القصيدة رقم ٦٣ لأنها تفتقد الغرض الواضح ، وكأن من نحلها الأعشى أرادوا بها أن يجرؤوا على لسانه حديثه عن أسفاره البعيدة إلى الغساسنة في الشام وبنى الجلسنداء

في عُمان وغيرهم . وليس في القصيدتين رقمي ٦٤ و ٦٥ غرض واضح إنما فيهما غزل وخر أو غزل ووصف ، ولذلك كنا نشك فيهما كما نشك في القصيدة رقم ٧٦ ؛ لأنها كما يقول رواةها في مديح قيس بن معد يكرب ، وليس له فيها سوى ثلاثة أبيات في مطلعها ثم تمضي القصيدة في الغزل والخمر ، وهي صورة معكوسة للصورة الطبيعية عنده ، إذ يبدأ بالغزل ، ثم يطيل في المدح : ونحن نشك أيضاً في القصيدة التي تليها برقم ٧٧ لا لغزلها الماجن فحسب ، بل لأن هذا الغزل يستنفد منها ٢٤ بيتاً ، ويليه وصف للناقة في ٣ أبيات وفخر لا يتجاوز ٥ أبيات . ومثلها القصيدة رقم ٧٨ إذ نراه يصور فيها لهوه ومجونه في ٢٢ بيتاً ، ثم يترك لمدوحه ٥ أبيات . ومثلها القصيدة رقم ٨٠ وهي غزل خالص أُودع في أسلوب ركيك . أما القصيدة رقم ٨١ فاعتذار لعلقمة بن عُلانة أجراه الوضاعون على لسانه حتى يمحوا هجاءه المقذع فيه ، وما كان ليهجوه في قصيدتين مطولتين ويدور هجاءه له في العرب ثم يعتذر له بستة أبيات .

وإذا أضفنا إلى هذه القصائد التي شككنا فيها مقطوعاته القصيرة التي لا تتجاوز أحياناً بيتاً والتي لا نستطيع أن نقيم عليها مراصد نمتحنها بها لقصرها وهي ذوات الأرقام ٣١ ، ٣٧ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٤ ، ٧٥ استطعنا أن ندرس ما بقي له دراسة نظمّن إليها على الأقل بعض الاطمئنان . ولم يبق له قليل بعد هذا الفحص للديوان ، بل إنه كثير ، إذ يتضمن القصائد ذوات الأرقام : ١ ، ٣ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٦ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٤٨ ، ٧٠ ، ٧٣ . على أن أعلاها ثقة هي القصائد ذوات الأرقام ١ ، ٦ ، ١١ ، ٢٩ ، ٣٤ ؛ لأن الشارح أسند الأولى والاثنتين الأخيرتين إلى أبي عبيدة كما أسند الثانية والثالثة إلى أبي عمرو بن العلاء ، فتلك القصائد إذن من رواية البصرة التي نرفعها على رواية الكوفة في التوثيق . على أننا نضرب صفحاً عما ألحقه جابر ناشر الديوان به من أبيات وأشعار وجدها تنسب للأعشى في بعض الكتب ، إذ بمجرد النظر فيها نعرف خطأ نسبتها إليه أو على الأقل خطأ نسبة الكثير الأكثر منها .

شعره

يمتاز الأعشى بكثرة قصائده الطويلة ، كما يمتاز بكثرة تصرفه في فنون الشعر من مديح وهجاء وفخر ووصف وخرم وغزل . أما المديح فقد قالوا إنه أول من سأل بالشعر واستجدى بالقريض^(١) واتخذهُ مَتَّجِسْرًا يطوف به البلاد^(٢) ، وحقاً سبقه غير شاعر إلى المديح كزهير والنابغة ، ولكن أحداً منهم لم يحرص على الاستعطاء وطلب النوال كما حرص الأعشى فقد طاف في أطراف الجزيرة العربية يمدح السادة والأمراء ، ذاكراً ما يفيضون عليه من الإبل والحياد والإماء وصحاف الفضة وثياب الخبز والديباج ، منوهاً في أثناء ذلك بسؤاله لهم ، غير مُبْتَقٍ على شيء من نفسه . ومعاني المديح عنده لا تفرق عن المعاني العامة في مدائح الجاهليين ، فهو ما ينسب يمدح بالكرم والشجاعة والوفاء وعَوْنُ الضعفاء في القبيلة ، وكثيراً ما يعرض لحيوش ممدوحه إذا كان أميراً أو شيخاً لقبيلته مصوراً ما تنزله على الأعداء من التقتيل والنكال ، وقد يطيل في وصف ما تشنه من غارات على الأعداء ، وفي تضاعيف ذلك يورد على ممدوحه ثناء مفرطاً .

ومن أهم ما يميز مديحه بالقياس إلى الجاهليين كثرة إسرافه فيه ، ولا نقصد الإسراف في الأوصاف من حيث هي وإنما نقصد الغلو فيها والإفراط ، بحيث يُعَدُّ مقدمة لمبالغات العباسيين في مدائحهم ، وقد يكون ذلك من أثر رغبته الشديدة في العطاء ، وقد يكون من أثر الحضارات التي ألمَّ بها في طوافه ، وهذا هو معنى ما نقوله من أنه يشبه العباسيين ، فدوقه في المديح يقترّب من ذوقهم وما نعرفه عندهم من غلو دفعهم إليه ملق الخلفاء والوزراء بنفس الباحث الذي بعث الأعشى على إفراطه في مديحه ، ونقصد طلب النوال والعطاء الجزيل . وقرأ له هذه القطعة من مديحه لقيس بن معديكرب إذ يقول :

وَسَعَى لِكُنْدَةَ سَعَى غَيْرِ مُوَآكِلٍ قَيْسٌ فَضْرٌ عَدُوُّهَا وَبَنَى لَهَا

(٢) العمدة لابن رشيقي (الطبعة الأولى) ١/٤٩ .

(١) ابن سلام ص ٥٤ .

وأمان صالح ماله لفقيرها
فترى له ضراً على أعدائه
أثراً من الخير المزيّن أهله
وإذا تجيء كتيبة ملمومة
كنتَ المقدم غير لابسِ جُنّة
وعلمتَ أن النفس تلقى حتفها
وَأَسَى وَأَصْلَحَ بَيْنَهَا وَسَعَى لَهَا (١)
وترى لنعمته على مَنْ نالها
كالغيث صاب ببلدة فأسالها (٢)
خرساء بخشى الدارِ عون نزالها (٣)
بالسيف تضرب معلماً أبطالها (٤)
ما كان خالقها المليك قضي لها

فإنك تحس فيه روح العصر العباسي ، لا من حيث سهولة اللفظ فحسب ،
ولا من حيث المقابلة بين المعاني فحسب ، بل من حيث ما يجري في ذلك من أثر
رقة الذوق بتأثير الحضارة ، وهي رقة دفعته إلى الغلو في وصف شجاعة ممدوحه ،
فإذا هو لجرأته وبسالته يقتحم ميادين الحرب بدون ترسٍ يحميه ، وييده سيفه
يضرب به في الأقران تاركاً فيهم آثاره ، وقد آمن بينه وبين نفسه بأن الإنسان لا بد
أن سيوت ، فلا داعي للخوف ، فلكل امرئٍ أجل مضروب ، لا يتأخر عنه
ولا يتقدم . وقرأ له هذه القطعة في مديحه لهوذة بن علي سيد بني حنيفة :

إلى هوذة الوهاب أهديتُ مِدْحَتِي
سمعتُ برحِبِ الباع والجود والندي
فتى يحْمَلُ الأعباء لو كان غيره
وأنت الذي عودتني أن تريشني
وإنك فيما نابني بي موزع
أرْجِي نوالاً فاضلاً من عطائكا
فأذليتُ دَلْوِي فاستقمتُ برشائك (٥)
من الناس لم ينهض بها متماسكا
وأنت الذي آويتني في ظلالكا (٦)
بخير وإني مولعُ بشنائكا (٧)

(٥) الباع : الكرم وكذلك الندي . الرشاء :
حبل الدلو .
(٦) تريشني : تعينني وتعنني .
(٧) هكذا رواية البيت في المخطوطة اليمنية
وهو مضطرب في الديوان . موزع : مولع .

(١) أسى : داوى .
(٢) صاب المطر : سقط وانصب .
(٣) ملمومة : مجتمعة . خرساء : لا يسمع
لها صوت من كثرة الدروع أى ليس لها
تقمة .
(٤) الجنة : الترس .

وجدتَ علياً بانياً فورِثتَهُ
بحورُ تَقَوَّتْ النَّاسَ فِي كُلِّ لَزِيَّةٍ
وما ذاكَ إلا أن كَفَيْكَ بالندى
يقولون في الأكفاء أكبرُ همَّه
ووجدتَ انهدامَ ثَلَمَةٍ فبنيتهَا
ورَبَّيْتَ أيتاماً وأنعمتَ صِبيَّةً
ولم يَسَعِ في العلياءِ سَعِيكَ ماجدٌ
فإنك تحس المبالغة في المديح واضحة ، وهو يمزجها بالتبذل في السؤال تبذلاً
لم يعرف في عصره ، وكل ذلك واضح فيه رقة اللهجة وأن الأعشى من ذوق يخالف
ذوق الجاهليين ، وهو ذوق جاءه من طول اختلاطه بأهل الحضرة .

ولا نشك في أن هذا الذوق هو الذي جعله في أهاجيه ينحو نحو السخرية
من مهجوه في كثير من شعره ، وكأنما يجد فيه مرارة أشد وألذع من مرارة الهجاء
المقذع ، وقرأ معلقته أوقصيدته السادسة في الديوان التي وجه بها إلى يزيد بن مُسَهِرِ
الشيثاني ، وكان قد قتل أحدُ بني قيس بن ثعلبة رجلاً من قومه ، فحمسهم للشار
لقتيلهم ، فتعرض له الأعشى يهدده ويهجوهم مستهلاً تهديده وهجاءه بقوله :

أَبْلِغْ يَزِيدَ بَنِي شَيْبَانَ مَأْلَكَةً
أَبَا ثُبَيْتٍ أَمَا تَنْفِكُ تَأْتِكِلُ (٧)
أَلَسْتَ مِنْتَهياً عَنِ نَحْتِ أَثْلَتِنَا
وَلَسْتَ ضَائِرَهَا مَا أَطَّتِ الْإِبِلُ (٨)

بعض الاضطراب في الديوان .
(٦) إني : مقصور إناء .
(٧) مألكة : رسالة . تأتكل : تسعي
بالشر أو تغضب وتغل حتى لكأنك تأكل
نفسك .
(٨) الأثلة : شجرة . ونحت أثله :
تنقصه وعابه . أطت : أنت . ويريد بقوله ما
أطت الإبل التأيد .

(١) واضح من الشطر الثاني أن مالكا وشيبان
وطلقاً أعمام هوزة .
(٢) لزية : شدة وأزمة .
(٣) يريد بالشر الأول أن ممدوحه يتهم
بأنه يظلم أكفاه .
(٤) الأثلة : فرجة المهدم أو ما فيه من
شقوق .
(٥) هكذا رواية البيت في المخطوطة اليمنية وبه

كناطحِ صخرةً يوماً ليوهنها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل^(١) .
 وواضح أنه يوبّخه ساخرًا منه مزدريًا له ، إذ يقول : يا أبا ثُبَيْتٍ أما تنفك
 تسعى بالشر والفساد وتقع في أعراضنا بالذم والقدح ؟ ألسنت منتهياً عن ذمنا
 وتنقصنا ؟ وإنك مهذا أتيت من قوارع الطعن لن تضر أصلنا الشامخ مدى الدهر ،
 وما مثلك إلا كمثل وععل ينطح صخرة ليضعفها ، فاستعصت عليه ولم يضرها ولم
 يوهنها إنما ضر قرنه وأوهنه . وارجع إلى قصيدتيه اللتين يهجو بهما علقمة بن علاثة ،
 فستجده يعمد إلى هذا اللون من السخرية المرة بعلقمة ، إذ يقول له في أولاهما
 موازناً بينه وبين خصمه ومنافرة عامر بن الطفيل :

علقمَ ما أنت إلى عامرِ الناقضِ الأوتارَ والوترِ^(٢)
 يا عَجِبَ الدهرِ متى سُويَا كم ضاحكٍ من ذا وكم ساخرِ
 ولستَ بالأكثرِ منهم حصيٌ وإنما العِزَّةُ للكثيرِ^(٣)
 علقمَ لا تسفَه ولا تجعلنُ عرَضك للواردِ والصادرِ
 ولستَ في السُّلَمِ بندي نائلٍ ولستَ في الهيجاءِ بالجاسرِ^(٤)

وهذا من أشد المهجاء وأمضه ، ولو أنه شتم وأفحش لعمد سفيهاً ، أما أن يهجو
 على هذا النحو من التعريض فإنه يجعل الظنون تتسع كما يجعل النفوس تتعلق بمعنى
 كلامه وتكثر من تأويله . وهو يشير في الأبيات إلى حكم هرم بن قُطَيْبة حين تنافر
 إليه علقمة وعامر ، فسوى بينهما في عبارته المأثورة : « إنكما كثرُ كُتْبِي البعير
 الأدرَم (الفحل) تقعان على الأرض معاً » والأعشى يردّ هذا الحكم وينقضه
 قائلاً : أين الشرى من الشرياً . وقد مضى في القصيدة الثانية يذمه ، ولم يكن من
 أبياتها بيت أشد إيلاماً لعلقمة من قوله :

تبيتون في المشتى ملاءً بطونكم وجاراتكم غرثى يبتن خمائصاً^(٥)

(٣) الحصى هنا : العدد .
 (٤) النائل : العطاء . الجاسر : الجريء .
 (٥) المشى : زمن الشتاء . غرثى : جاعة .
 خمائص : ضامرات البطون .

(١) الوعل : ضرب من الماعز الجبلي .
 (٢) الأوتار : جمع وتر وهو النار .
 ناقضها : الآخذ بئثاره . الوان : الذي
 يترك تأره في الأعداء فلا يستطيعون نفعه .

حتى لقد زعم الرواة أنه بكى حين سمعه . وواضح أنه لم يجعله بخيلاً فحسب ، بل جعله هو وعشيرته يملأون بطونهم ويُسَخَّمون في ليالي الشتاء الباردة على حين يشتد كَلَبُ الجوع والمنغبة على جاراتهم . واختار النساء ليتزع من قلوبهم كل عطف ورحمة ، فهم ليسوا بخلاء فحسب ، بل إن قلوبهم لأشد قسوة من الحجارة . واستمع إليه يسخر من كسرى قبل وقعة ذى قار :

واقعدُ عليك التاجُ مُعتصباً بهِ لا تطلينَّ سوامنا فتعبداً^(١)

وفي كلمة «اقعد» من الهجاء ما يفوق كل إقذاع ، إذ يستخف به ويجيوشه التي يعدّها لقتالهم وقتال شيبان ، وكأنه يلوح له أنه إن هاجمهم مُنسى بهزيمة تطيح بتاجه . ولعلنا الآن نفهم ما كان يقال عن الأعشى من أنه « إذا مدح رفع وإذا هجا وضع » ، فهو إذا مدح غالى في مدحه حتى رفع ممدوحه على جميع الناس ، وإذا هجا أروع لا بالشتم والهجاء المقذع وإنما بالتهكم والسخرية والاستهزاء .

والأعشى كثير الفخر في شعره بقبيلته وعشيرته ، وهو يجمع لهما ضروب المفاخر والمناقب التي كانوا يعتزون بها في الجاهلية من الجود في الحذب والشجاعة في الحرب والرعى في المكان الخوف وإغاثة المستصرخ . وكثيراً ما يضمن هجاء لمن يختلف معهم من قبيلته الكبرى بكر وقبيلته الصغرى قيس بن ثعلبة فخراً مدوياً ، كقوله في معلقته التي أشرنا إليها آنفاً متوعداً يزيد بن مُسهر الشيباني ومفتخراً بشجاعة قبيلته وما أئختت في القبائل من جراح :

سائلُ بني أسدٍ عنّا فقد علموا أن سوف يأتيك من أنبائنا شكلاً^(٢)

واسألُ قُشيراً وعبد الله كلهمُ واسألُ ربيعةَ عنا كيف نَفْتَعِلُ^(٣)

إنا نقاتلهم حتى نقتلهم عند اللقاء وهم جاروا وهم جهلوا

لئن مُنيتَ بنا عن غيبٍ معركةٍ لم تُلْقنا من دماءِ القومِ ننتفِلُ^(٤)

(١) السوام : الإبل الراعية ويقصد بها الأعشى ديار العرب . تعبد : تصيح كالعبد ، يريد أنه يهزم ويقهر .
(٢) شكل : أزواج مختلفة يريد خبراً من بعد خبر .
(٣) نفتل هنا : نفعل العظام .
(٤) غيب : عقب ، يقصد أنهم لا يتعبون من لقاء الأعداء ، فإن لقيهم بعد معركة فيسجدهم على أتم استعداد للقاء . ننتفل : نتفضى ، ويرى ننتقل .

قد نَحْضِبُ العَيْرَ من مكنون فائِله وقد يَشِيْطُ . على أرماحنا البَطْلُ^(١)
نحن الفوارس يومَ العَيْنِ ضاحيةً جَنْبِيْ فُطَيْمَةَ لا مِيلَ ولا عَزْلُ^(٢)
قالوا الركوبَ فقلنا تلكَ عادتنا أو تنزلون فإننا مَعَشَرُ نُزْلُ^(٣)

وقد ذهب بعض القدماء إلى أن البيت الأخير أشجعُ بيتٍ لما صورَّ فيه الأعمى قومه وأنهم يحسنون الطعان فرساناً كما يحسنون الضراب راجلين منوهاً بأن تلك سجية لهم دَرَجَ عليها شيروتهم وشبابهم .

ونراه يكثر من وصف الصحراء وناقته ، وهذا طبيعي لكثرة رحلاته وأسفاره ، وهو في هذا الموضوع يجرى على عادة الجاهليين ، فيصور الأودية وما يجري فيها من ظلام أو سموم أو مياه أمطار كما يصور طرقها الوعثة ورمالها ومناهلها ووحشها وعزيف الجن ليلا بها ، يقول في معلقته :

وبلدةٍ مثلِ ظهرِ التُّرْسِ موحشةٍ للجنِّ بالليلِ في حافاتها زَجْلُ^(٤)
لا يَتَنَمَّى لها بالقيظِ يركبها إلا الذين لهم فيما أتوا مهْلُ^(٥)
جاوزتها بطليحٍ جَسْرَةَ سُرحٍ في مِرْفَقَيْهَا إذا استعرضتها فتلُّ^(٦)

وواضح أنه في هذه الأبيات يفخر بتحملة لمشقات السفر في مثل هذه الأرض الوعرة الصلبة الموحشة التي لا يسمع فيها صوت سوى صوت الجن والتي لا يركبها في حمارة القيظ واشتعال الرمال إلا من تعود الصبر واحتمال المكاهة ، ويقول إنه يقطع مثل هذه الأرض بناقة نِضْوٍ أسفار ضامرة موثقة الخلق صلبة قوية . وهو

بالترس لبيان أنها غليظة وصعبة على من ينفذ فيها . موحشة : كثيرة الوحش . زجل : صوت . حافاتها : نواحيها .
(٥) يتنمى : يرتفع . القيظ : شدة الصيف . مهل : أناة وصبر .
(٦) طليح : مهزولة لكثرة أسفارها . جسة : ضخمة . سرح : سريعة . قتل : قوة وصلابة .

(١) العير : حمار الوحش استعاره للفارس لأن العير يتقدم الأتن : الفائل : القناة الدموية كالشریان . يشيط : يهلك .
(٢) يوم العين : يوم كان بين بني قيس بن ثعلبة وشيبان بجنب موضع في البحرين يسمى فطيمة . ميل : جمع أميل وهو الجبان . عزل : جمع أعزل : من لا سلاح له .
(٣) يريد بالنزول التضارب بالسيف .
(٤) البلدة : القطعة من الأرض . وشبهها

لا يطيل في وصف أعضاء الناقة صنيع طرفه ، بل يقتضب الحديث عنها غالباً ، ويكثر حين يلم ببيان سرعتها أن يشبهها بحمار وحش أو ثور أو نعامه ، ويطيل في وصف ما يلم به منها على عادة الجاهليين. وقرأ هذه القطعة :

وفلاة كأنها ظهْرُ تُرْسٍ ليس إلا الرجيعَ فيها عَلاقٌ^(١)
 قد تجاوزتها وتَحَى مَرُوحٌ عنتريسُ نَعَابَةٌ مِعَناقٌ^(٢)
 عَرْمِسُ تَرَجْمُ الإِكامَ بِأَخفا في صِلابِ منها الحصى أَفلاقٌ^(٣)
 وكان القَتودُ والعِجَلَةُ الوَدُ راءَ لَمَّا تَواحقَ السُّواقُ^(٤)
 فوق مُسْتَبقِلٍ أَضَرَ به الصَّيدُ فُ وزرُّ الفُحولِ والتَّنْهاقُ^(٥)
 أو فريدٍ طاوٍ تَضَيَّفَ أرطاً ةً عليه من الغصونِ رُواقٌ^(٦)
 أخرجته شَهْبَاءُ مُسْبِلَةٌ الوَدُ قِ رجوسٍ قُدَّامها فُراقٌ^(٧)
 وتعادى عنه النهارُ تُواريد ه عِراضُ الرِّمالِ والدَّرْداقُ^(٨)
 وتَلَّتْهُ عُضْفُ طَوارِدُ كالنَّحْ ل مغارِبُ هُمَهِنِ اللَّحاقُ^(٩)

وهو يصور فيها فلاة مقفرة ، لا تجد فيها الإبل ما تأكله سوى الاجترار ، ويقول إنه تجاوزها بناقة نشيطة قوية مسرعة سرعة شديدة ، كانت تزجم المرتفعات بأخفافها الصلبة ، فتشق ما فيها من حصى شتقاً وسرعان ما يشبهها في سرعتها بحمار وحش ، يقاسى من لظى الصيف وعض أمثاله وتنهاقها عليه ،

- زر : طرد وعض .
 (١) الرجيع : ما تجتره من طعامها . العلاق : ما تطعمه الإبل من الشجر .
 (٢) مروح : نشيطة . عنتريس : صلبة . نعابة : تمد عنقها في سيرها . معناق : من العنق وهو سير واسع للإبل .
 (٣) عرمس : صلبة . الإكام : المرتفعات .
 (٤) القتود : الرجل بأدواته . العجلة : المزايدة ، وهي قربة الماء . الوفاء : كثيرة المياه . السواق : طويل الساق . تواحق : مد عنقه في السير . تلك رواية المخطوطة اليمنية ، والبيت في الديوان مضطرب .
 (٥) مستقبل : حمار وحش يأكل البقل ،
 (٦) فريد : منفرد ، ويقصد ثور الوحش .
 (٧) شهباء : سحابة بيضاء يصدعها سواد . مسبل : مرسله . الودق : المطر . رجوس : مرعدة . فراق : جمع فارق وهي السحابة المنفردة .
 (٨) تعادى : تباعد . الدرداق : ذلك متلبد من الرمال .
 (٩) العضف : كلاب الصيد مسترخية الآذان . مغارِبُ : جماعة .

فهو يسرع لا يلبى . ولا يمضى طويلاً مع هذا الحمار ، بل يتركه إلى ثور وحش يشبهه به ناقته ، ويصوره طاوياً في ليلة من ليالي الشتاء القاسية ، وقد بات مستظلاً بأغصان أرطاة ، والمطر يسقط من حوله والفرع يأخذه من كل جانب ، ولم تلبث نفسه أن راودته على الخروج من كناسه ، فخرج يتوارى في عراض الرمال وكتبانها ، ولم تلبث كلاب الصيد أن رأته فأسرعت تحاول اللحاق به ، وأسرع يحاول فتوتها . والأعشى يشبه ناقته به وهي تترامى فوق الرمال مسرعة كأنما شيء يطالبها .

وتتكرر مثل هذه الصورة لا عند الأعشى وحده ، بل عند جميع شعراء الجاهلية ، إذ يشبهون الناقة بوحش الفلاة ، وخاصة حين يناضل كلاب الصيد ، وإن كنا نلاحظ أن الأعشى لا يطيل في تصوير ذلك إطالة النابغة أو ليلى أو غيرها من الجاهليين ، وربما جاءه ذلك من ذوقه المتحضر ، فكان يوجز في وصف الصحراء والناقة والحيوانات الوحشية ، على حين كان يتسع في الحديث عن الخمر والغزل .

وحقاً نجد عند الجاهليين تعرضاً كثيراً للخمر ، ولكنهم عادة يسوقونها مع الحديث عن فتوتهم وكرمهم وبنظهم ، على نحو ما نرى في معلقة طرفة ، أما عند الأعشى فإننا نجدها في فاتحة كثير من قصائده تالية لبعض غزله ، ونحس كأنها لذته من الدنيا ، فهو يطيل الحديث عنها وعن تأثيرها في نفوس شاربها ، وكأنه يقدسها تقديساً ، فهي وثنه وصنمه ، ولذلك لم يكذب يسمع من قريش - كما أسلفنا - أن الرسول صلى الله عليه وسلم يحرمها حتى كفَّ عن لقائه وانصرف لساعته .

وهو يجيد وصفها إجادة لفتت القدماء إليه ، فقالوا إنه أشعر الجاهليين إذا طرب^(١) ، يقصدون إذا شرب الخمر ووصفها ، وهو وصف يفيض بالحيوية ، إذ يجسم فيه بيتها ومجالسها وما يُنشَرُ فيها من الورد والرياحين وما يقوم فيها من السقا والمغنين والإماء الخليعات اللاتي يتلبسن الشفوف الرقيقة وما يضربُ عليه العازفون من آلات طرب كالصنج والعود ، واستمع إليه يقول في معلقته :

(١) أغاني ١٠٨/٩ .

وقد غدوتُ إلى الحانوت يتبعني
 في فتية كسيوف الهند قد علموا
 نازعتهم قُصبَ الرِّيحان مُتَكثراً
 لا يَسْتَفِيقون منها وهى راهنة
 يَسعى بها ذو زُجاجاتٍ له نُطْفُ
 ومستجيبٍ تخال الصَّنَجِ يَسْمَعُهُ
 والمساحياتِ ذبولَ الخَزِّ آوَنَةٌ
 من كل ذلك يومٌ قد لهوتُ بهِ

شاوٍ مِثْلُ شَلُولٍ شَلْشَلٍ شَوْلٍ (١)
 أن ليس يَدْفَعُ عن ذى الحيلةِ الحِجْلِ
 وقهوةٌ مُزَّةٌ راووقها خَضِلٌ (٢)
 إلا بهاتٍ وإن عَلَّوا وإن نَهَلُوا (٣)
 مُقْلَصٌ أسفلَ السَّرِبَالِ مُعْتَمِلٌ (٤)
 إذا تُرَجَّعَ فيه القَيْنَةُ الفُضْلُ (٥)
 والرَّافلاتِ على أعجازها العِجْلُ (٦)
 وفي التجاربِ طولُ اللَهْوِ والنَزْلُ

وهو يصف في الأبيات يوماً من أيام لهُوه غدا فيه إلى خمار مع رفيق ناشطٍ خفيف الحركة طيب النفس في فتية كسيوف الهند مضاء وقوة ورونقاً . ويقول إنهم تجاذبوا أغصان الريحان وخرمة مزة ما زالوا يتعاطونها ، فراووقها لا يجف ، وهم لا يسأمون من تعاطيها ولا يفيقون من شربها إلا ليقولوا للساقى : هات ، ويكررون هذه اللفظة مهما شربوا . ويصف الساقى بأنه غلام أو شاب حدث ، كان يعلّق في أذنه قرطاً ويلبس قميصاً قصيراً ، وقد طُبع على العمل بمجد ونشاط . ويضيف إلى ذلك وصف عود كانت ألحانه تتسّق مع صنّج كانت تعزف عليه وتعنى قينة في ثوب واحد رقيق ، ومن ورأها نساء ترفل في ثياب الخز والحريير ، وقد علت أعجازهن كأنها قرب ممتلئة ، فهي تهتز وترتج . ويختم أبياته بأنه تمتع بكل ذلك

نطف : جمع نطفة وهي القرط به لؤلؤة صافية .
 مقْلَصُ أسفل السربال : قصير القميص .
 معتمِل : مطبوع على العمل والنشاط .
 (٥) المستجيب : المود ذو الأوتار لأنه يجيب صاحبه كما يجيب الصنج وهو الآخر من آلات الطرب . وجعل الصنج يسمه كناية بذلك عن اتساق ألحانها . القينة : الأُمة المغنية .
 الفضل : اللابسة ثوباً واحداً .
 (٦) العجل : جمع عجلة بكر العين وسكون الجيم وهي قربة الماء .

(١) غلوت : ذهبت . شاو : يشوى اللحم .
 ومعنى مثل شلول شلشَل شول أنه خفيف الحركة نشيط .
 (٢) قُصب : جمع قضيب وهو النصن ، القهوة : الخمر . الراووق : البضاء الذي تروق فيه الخمر . خضِل : ندى ، كنى بذلك عن اتصال شربهم .
 (٣) علوا : من العلل وهو الشرب بعد الشرب تباعاً ، نهلوا : من النهل ، وهو أول الشرب .
 إلا بهات : إلا بمقدار قولهم هات .
 (٤) ذو زجاجات : يريد الساقى .

ولَهَا به وجربه مراراً وتكراراً .

والأعشى لا يصف مجالس الخمر فحسب ، بل يصف وصفاً دقيقاً أوانيتها وألوانها وما تفعله بعقول شاربها وما تُحدث في قلوبهم من نشوة ، مما يدل على أنه كان مشغولاً بها مفتوناً ، بل سكبيراً مغرقاً في السكر ، وهو في ذلك يقترب من ذوق جماعة المجان في العصر العباسي أمثال أبي نواس ، وفي الوقت نفسه يفترق من ذوق معاصريه الذين لم يكونوا يسرفون على أنفسهم لإسرافه في اللهو والمجون . ولا نشك في أن هذا جاءه من أثر الحضارات التي ألمَّ بها في الحيرة وغير الحيرة ، بحيث تحوّل مدمناً لها ، يلزم حوانيتها ، فإن ولّى وجهه نحو منازل قومه حمل منها ما يكفيه هو ورفاقه هناك ، فيهلون ويعلّون ولا يفيقون ، وهو في أثناء ذلك ينشدهم ما ينظمه فيها ، وهم يصفقون استحساناً . ولم يكن يحسن وصفها فحسب ، بل كان يُضفي عليه حيوية بما يمزجه به من قصص على شاكلة قوله :

أتاني يؤامرني في الشمر ل ليلا فقلت له : غادها (١)
 أرخنا نباكرُ جدَّ الصبو ح قبل النفوس وحسادها (٢)
 فقمنا ولما يصبح ديكنا إلى جونة عند حدادها (٣)
 تنخلها من بكار القطاف أزيرق آين إكسادها (٤)
 فقلت له : هذه هاتها بأدماة في جبل مقتادها (٥)
 فقال : تزيدوني تسعة وما ذاك عدلاً لأندادها (٦)
 فقلت لمنصفنا : أعطه فلما رأى حصر شهادها (٧)
 أضاء مظلته بالسرا ج : والليل غامر جدادها (٨)

- (١) يؤامرني : يشاورني . الشمر : الشمول : الخمر .
 غادها : انطلق بنا إليها .
 (٢) جد : نشاط . الصبوح : خمرة .
 الصباح .
 (٣) جونة : جرة وخاوية . حدادها : خمراها .
 (٤) تنخلها : تخيرها . بكار القطاف :
 أول ما يقطف . أزيرق : أزرق العينين .
 آمن إكسادها : آمن من كسادها لا يخاف .
- (٥) أدماة : ناقة بيضاء . مقتادها :
 غلامها الذي يرهاها .
 (٦) أندادها : أمثالها .
 (٧) منصف : خادم . حصر : حضور .
 شهادها هنا : الدراهم .
 (٨) مظلته : حانوته أو خبائه . الحداد :
 الأهداب والأستار .

دَرَاهِمُنَا كُلُّهَا جَيْدٌ	فلا تحبسنا بِنَقَادِهَا (١)
فَقَامَ فَصَبَّ لَنَا قَهْوَةً	تُسَكِّنَا بَعْدَ إِرْعَادِهَا (٢)
كُمَيْتًا تَكشِفُ عَن حُمْرَةٍ	إِذَا صرَّحَتْ بَعْدَ إِزْبَادِهَا (٣)
كَمَحْوَصَلَةِ الرَّأْلِ فِي جَرِيهَا	إِذَا جُلِيَّتْ بَعْدَ إِقْعَادِهَا (٤)
وَجَالَ عَلَيْنَا بِإِبْرِيْقِهِ	مَخْضَبُ كَفِّ بِفِرْصَادِهَا (٥)
فَبَاتَتْ رِكَابٌ بِأَكْوَارِهَا	لَدَيْنَا وَخَيْلٌ بِأَلْبَادِهَا (٦)
وَرُخْنَا تَنَعَّمْنَا نَشْوَةً	تَجوُّرُ بِنَا بَعْدَ إِقْصَادِهَا (٧)

ولا تختلف هذه الأبيات المنتزعة من القصيدة الثامنة في الديوان عن خمريات أمي نواس وأضرابه في شيء ، لولا ذكره للأكوار والألباد في نهايتها ، ولوحذفنا بينهما لأصبحنا إزاء خمرية عباسية تعتمد على القصص والإطراف به . وهو في أولها يذكر أن فتى طرده قبل أن يسفر الصباح يدعوه أن يذهباً معاً لتناول الخمر . وذهباً في هزيع الليل الأخير - قبل أن تصبح الديكة وقبل أن يسبقهما أي كاشح حسود - إلى حانوت خمار أعجمي ، كنى عنه بزرقه العين ، وهو خمار حاذق لصنعتة ، استخلص خمره من بكار القطاف ، وهي خمر معتقة ومثلها لا يكسند ولا يبور . وطلباً إليه أن يسقيهما بناقفة قاداها إليه ، وهي واقفة ببابه مزوممة بجبل غلامها ، فلم تكفه وطلب فوقها تسعة دراهم ، مشيداً بخمره وأن هذا الثمن ليس كفوئاً لها ، ويقول الأعشى إنه قال لصاحبه : اعطه ما يريد . ويضئ الخمار خبائه أو حانوته ، وبعداً الدرهم ويتبينها خشية زيفها ، حتى إذا اطمان لها وللأعشى ورفيقه أو رفاقه قام ، فناولهم خمرأً تمشت في أجسادهم ، فسكنوا إليها ، وهي خمر حمراء

من جلوة العروس . القاعدة ، إذا قعدت عن الطلب . وانظر الحيوان ١٤/٤ .
 (٥) الفرصاد : التوت الأحمر .
 (٦) الأكوار : الرحال . الألباد : جمع لبد وهو قطعة الصوف توضع تحت السرج
 (٧) إقصاد : قصد واعتدال .

(١) تنقادها : نقدتها وعدها حتى يتبين زائفها من صحيحها .
 (٢) تسكننا : نسكن إليها .
 (٣) كيمتاً : حمراء . صرحت : ذهب زبدها .
 (٤) الرأل : فرخ النعام . شبه الخمر بمحوصلة في الحمرة . جليت : أخرجت ، مأخوذ

فاقة كأنها الفرصاد أو التوت الأحمر ، وما يزال صاحبها يسقيهم ، وهم بها مشغوفون ، حتى انبثقت أضواء الصباح ، فنهضوا بركابهم وخيلهم ، تستخفهم النشوة استخفافاً خرجوا به عن أطوارهم وما تعودوه في صحوهم من قصد واعتدال .

وأنت تراه قد وصف الخمر ودثها ولونها وخآرها وحانوتها وتعرض لصباح الديكة في السحر ومساومة صاحبها في ثمنها وأثرها في النفس وما تصيب به شاربيها من انتشاء يتمشى في المفاصل . وهذه المعاني جميعها تدور فيها وفي أفلاكها خمريات العباسيين . واستمع إليه يقول :

وَأَدَكْنَ عَاتِقِي جَعَلِي سِبْحِي صَبَحْتُ بِرَاحِهِ شَرِباً كِرَاماً (١)
 مِنَ اللَّاقِي حُمْلُنَ عَلَى الرَّوَايَا كَرِيحِ الْمِسْكِ تَسْتَلُّ الزُّكَامَا (٢)
 مُشْعَشَعَةً كَأَنَّ عَلَى قَرَاهَا إِذَا مَا صَرَّحَتْ قِطْعاً سَهَامَا (٣)
 تَخْيِيرَهَا أَخُو عَانَاتٍ شَهْرًا وَرَجِي أَوْلَهَا عَامًا فَعَامَا (٤)
 يُؤْمَلُ أَنْ تَكُونَ لَهُ ثَرَاءٌ فَأَغْلَقَ دُونَهَا وَغَلَا سِوَامَا (٥)
 فَأَعْطَيْنَا الْوَفَاءَ بِهَا وَكُنَّا نُهَيْنٍ لِمَثَلِهَا فِينَا السَّوَامَا (٦)
 كَأَنَّ شُعَاعَ قَرْنِ الشَّمْسِ فِيهَا إِذَا مَا قُتَّ عَنْ فِيهَا الْخِتَامَا (٧)

وواضح أنه يتحدث عن دن من دنان الخمر أسود عتيق ، صبح به رفاقه ، ويقول إنه من نادر الدنان التي تجتلب من البلاد البعيدة والتي تنفذ رائحة خمرها بطيبتها إلى الأنف ، فتستل منه الزكام . ويصف هذه الخمر فيقول إنها مروقة ، صافية كأنها بياض الحر أو سرايه اللامع ، وقد انتقاها صاحبها في «عانات» ، وظل

- (١) أدكن : هو الدن لأنه يطلى بالقطران .
 عاتق : قديم . الجعل : السقاء الكبير أو القرية الكبيرة . سبحل : ضخم . الشرب : جماعة الشاربين . صبحت : ناولت ، وهو خمر الصباح .
 (٢) الروايا : جمع راوية وهو البعير .
 (٣) مشعشة : مروقة . قرأها : ظهرها .
 صرحت : صفت . المهام : وهج الصيف وما يكون معه من البياض .
 (٤) عانات : بلد بالشام . أولها : ما تزول إليه من ثمن غال .
 (٥) السوام : بكسر السين المساومة في البيع والمفالة .
 (٦) السوام : بفتح السين الإبل الراحية .
 (٧) قرن الشمس : أول ما يبدو منها في الصباح . الختام : السداد .

يلق عليها الآمال عاماً بعد عام ، مغالياً في ثمنها ، حتى اشتريناها منه ، وبصورها وهي تستقط من دنتها بشعاع الشمس الوهاج ، وهي من الصور التي أكثر العباسيون من تداولها ، كما أكثروا من الحديث عن رائحتها ووصف دنانها ، ومن قوله في كأس من كنوسها :

وكأس كعين الديك باكرتُ حدّها بفتيانِ صدقٍ والنواقيسُ تضربُ (١)
سلاف كأنّ الزعفرانِ وعندمًا يصفقُ في ناجودها ثم تَتَطَبُّ (٢)

وهو يشبهها بعين الديك في صفائها ، ويقول إنه باكرها أو باكر سورتها برفاق مخلصين ، يشربونها معه في الأديرة على قرع النواقيس ، ويحدثنا عن رائحتها وأثرها في نفسه ، حتى ليتصورها زعفراناً أحمر خأسط بصبغ العندم ، وقد سطعت منه رائحة زكية . وعلى هذا النحو ما يزال يصف الخمر ووصف مفتون بها ، معلناً أنه لا يستطيع عنها انصرافاً ، فهي كل لذته ومتاعه ، يقول :

وكأس شربتُ على لذةٍ وأخرى تداويتُ منها بها
لكي يعلم الناسُ أني امرؤٌ أتيتُ المعيشةَ من بابها

وما نبى يتحدث عن مجالسها وما ينثر فيها من ورود وما يكون فيها من قيان وآلات طرب ، بنفس الصورة التي تلقانا عند أصحاب الخمر والحجون في العصر العباسي . ونحن إنما سقنا ما وثقناه من أشعاره ، ومن يرجع إلى ديوانه وما رفضناه من قصائده يستطيع أن يلاحظ عبث الرواة بشعره ، فقد أجروا على لسانه خمرة تزخر بالألفاظ الفارسية ، وكأنه فارسي أباً وأماً ممن أتقنوا الشعر العربي في العصر العباسي وأتقنوا فن الخمرية بنوع خاص ، وهل تفرق قصيدته رقم ٥٥ من قصائد أبي نواس وأضرابه في شيء ؟ إنها تكتظ بأسماء الرياحين والأزهار وآلات الطرب الفارسية ، ولا يبخل عليه واضعها بذكره أنبل مصر في تضاعيفها وإجرائه على لسان الأعشى بعض ما كان يجري على لسان أبي نواس ونظرائه من أن صاحبها مجوسى يصلى عليها

(١) باكر : شربها في الصباح الباكر .
حدّها : سورتها وحدتها .
شجر عروقه حمواه يصبغ به . يصفق : يبرق . ناجودها : جرتها . تقطب : تمزج .
(٢) السلاف : أجود الخمر . العندم :

ويزمرم . فإذا بقي لجان الفرس في العصر العباسي . وقيل ذلك نفسه في قصيدته رقم ٣٦ وقد رفضناها لما فيها من حديث عن هلاك الملوك الأولين ، وهي ترفض أيضاً لما فيها من صور خمرية تنبوعلى ذوق الجاهليين ، إذ يوصف زقها الأسود وقد طلى بالقار وطرح على الثرى بجبشى نام وانبطح ، كما يوصف السكارى وقد تمددوا على الأرض وخذلتهم أرجلهم من غير كسح . فلا يستطيعون حراكاً بالحبال الممدودة لصيد بعض الطير .

وإذا تركنا خمره إلى غزله لاحظنا أنه لا يقف طويلاً عند الأطلال صنيع غيره من الجاهليين ، بل يأخذ في وصف صاحبه ووصف عواطفه نحوها ، وقد يعتمد إلى نفس الصورة القصصية الميثوقة في معلقة امرئ القيس ، فيتحدث عن مغامراته ووصوله إلى محبوباته من المتزوجات على شاكلة قوله :

فَظَلِمْتُ أَرَعَاها وَظَلَّ يَحُوطُها حَتَّى دَنَوْتُ إِذَا الظَّلامُ دَنَا لَهَا
فَرَمَيْتُ غَفْلَةً عَيْنِيهِ عَنِ شَاتِيهِ فَأَصَبْتُ حَبَّةَ قَلْبِهِ وَطِحَالِها (١)
حَفِظْتُ النَّهَارَ وَبَاتَ عِنهَا غَافِلًا فَخَلْتُ لِصَاحِبِ لَدَّةٍ وَخَلَا لَهَا

فهو يخالس الزوج ويخاتله ، حتى يظفر ببغيته . وطبعي أن يكون غزله مادياً صريحاً لما رأينا من لهوه وخمره ، غير أننا نلاحظ عنده رقة في الغزل وشدة في الوله والتعلق بالمحوبة ، حتى إن روجه لتكاد تسقط من بين جنبيه جزعاً وصبابة ، وخاصة حين الوداع . واستمع إليه يقول في فاتحة معلقته :

وَدَّعْ هُرَيْرَةَ إِنْ الرُّكْبَ مُرْتَجِلُ وَهَلْ تَطِيقُ وَدَاعاً أَيَا الرُّجُلُ

فهو يأمر قلبه أن يودعها قبل الزحيل ، وسرعان ما يرجع إلى نفسه ينكر ما ظنه فيها من الصبر على الوداع . وهي صبابة لا نعرفها عند الجاهليين ، إنما نعرفها عند الأعشى صاحب الذوق الرقيق الذى أثرت فيه الحضارة ، وحوالته دقيق الحس دقة شديدة فإذا هو يتذلل في حبه ويخضع ، وامض معه في المعلقة فستجده يشبب بصاحبه منحرفاً عن طريقة الجاهليين في بكاء آثار الديار والأطلال ، فهي موضوع حبه وغزله ، ولا داعى لأن يذهب بعيداً مع الذكريات ، وإذن

(١) الشاة هنا : كناية عن المرأة .

فليأخذ في وصفها مفتناً في ذلك افتناناً ، فتارة يصف بَشْرَها وشعرها وعوارضها وتارة يصف مشيتها الوانية وحسنيها ، وتارة يصف تعلق الناس بطلعتها الفاتنة وما تغرق فيه من ترف ونعيم وعطور ، ولا يلبث أن يُورد علينا هذا البيت الغريب :

عَلَّقْتُهَا عَرَضاً وَعُلِّقْتُ رَجُلًا غَيْرِي وَعُلِّقْتُ أُخْرَى غَيْرَهَا الرَّجُلُ

وهو يصور فيه شقاهه بحبها ، فهو يحبها ، وهي تعرض عنه ، وتحب رجلاً آخر ، والرجل يعرض عنها ويحب فتاة أو امرأة ثانية . وسرعان ما يعود ، فيتذكر كيف كانت تشفق عليه وعلى نفسها حين زارها ذات مرة ، فقال :

قَالَ ، هُرَيْرَةٌ لَمَّا جِئْتُ زَائِرَهَا وَيَلِيَّ عَلَيْكَ وَيَلِيَّ مِنْكَ يَا رَجُلُ

فقد بالغ في وصف ارتياحها وخوفها على نفسها وعليه ، حتى إنها لتتفجع وتتوجع إشفاقاً وضعفاً . ولعل في هذا كله ما يوضح غزل الأعشى وأنه يمتاز من ناحية بأنه حسی مادی ومن ناحية أخرى برقته المفرطة وتصويره لعواطف المحبين وأحاسيسهم التي يبوحون بها ولا يستطيعون كظمها ولا كتمها ، بل يندفعون في تصويرها معبرين عن ولهم وعشقم .

والحق أن الأعشى في شعره جميعه يعد تمهيداً للشعر الحضري الذي ظهر من بعده ، سواء في غزله وخره أو في هجائه ومدحجه ، فهو في هذه الموضوعات جميعاً يفصح عن ذوق متحضر ، سواء في خطاب الأمراء والأشراف والخضوع لهم أو في خطاب النساء والتذلل لهن أو في اللعب بمهجويته والاستهزاء بهم والاستخفاف ، أو في وصف الخمر ومجالسها ودنانها وكتوسها .

ولعلنا بعد ذلك لا نعجب إذا رأيناه يشبه العباسيين في مبالغاتهم ، فقد كان يسرف على نفسه مثلهم في تصور ممدوحيه ، فإذا هو يقول في هـوذة بن علي الخنفي :

فَتَى لَوِيبَارِي الشَّمْسِ أَلْقَتْ قَنَاعَهَا أَوِ الْقَمَرِ السَّارِي لِأَلْقَى الْمَقَالِدَا (١)

فهو لو يباري الشمس لألقت قناعها خجلاً ولو يباري القمر اذل له واتقاد صغاراً . وهي مبالغة مفرطة ، ومثلها قوله متغزلاً :

(١) أتى المقالة : ذل واتقاد ، وفي رواية ينادى

بدلاً من يباري بمعنى يجالس

لو أسندت مَيْتاً إلى نَحْرِهَا عاش ولم يُنْقَلْ إلى قَابِرٍ
حتى يقولَ النَّاسُ مما رأوا يا عجباً للمَيْتِ النَّاشِرِ^(١)

فلو ضمت مَيْتاً إلى نحرها لدبت فيه الحياة من جديد ، وعجب الناس لما يرون من هذا الميت المبعوث . ويبالغ الأعشى أو قل يزيد مبالغته إفراطاً ، فيقول إن هذا الميت حين يبعث إلى دنياه يخلد فيها ولا ينقل إلى مقبرة من المقابر .

ولا يلاحظ عنده إطفائه بمثل هذه المبالغات فحسب ، بل يلاحظ أيضاً تعمقه في صنع الأخيصة والصور ، فإذا هو يقع منها على مبتكرات كثيرة ، نلاحظها لا في موضوعه الجديد فحسب ، ونقصد الحمر ، وإنما في أقدم الموضوعات وأكثرها دخولا في البداوة ، ونقصد وصف الناقة ، إذ يقول في بعض شعره إنها تجترع الآكام اجترعاً ، لما تطوى منها ، يقول :

إذا ما الآثامُ وَنِينَ حَطَّتْ على العِلَّاتِ تَجْتَرِعُ الإِكَامَا^(٢)

ويقول مصوراً سرعة ناقته في الهاجرة :

بِجَلَالَةٍ سُرْحٍ كَأَنَّ بِدَفِّهَا هِرّاً إذا انتعلَ المَطِيُّ ظِلَالَهَا^(٣)

فهى تجرى مذعورة كأن هِرّاً يحدشها ، وليس ذلك الذى يلفتنا عنده ، إنما يلفتنا أنه عبر عن تقلص الظلال في الهاجرة بأنه لم يبق لناقته إلا ظل أخفافها ، وهى تنتعله في خُطَّاءها . وتكثر عنده الصور المخترعة في الحمر ، وهى مبسوطة فيما أنشدناه من شعره .

ومن أهم ما يلاحظ عنده سهولة لفظه بالقياس إلى معاصريه وسابقيه من قبيلته أمثال طرفة ، وما نشك في أن هذا يرجع إلى أنه تأثر بالحضارة ، فرقت معانيه ، ورقت ألفاظه رقة لم تعرف لشاعر جاهلي ، وليس لفظه وحده الذى رقى ، بل إن نفسه رقت هى الأخرى ولانت ، فإذا هو يأتي بخمرياته وغزلياته السابقة . وحقاً تأثر النابغة مثله بالحضارة ، ولكننا نحس عنده أنه يُسبِّق على كثير من بداوته ، ولذلك

الإكام : المرتفعات .

(١) الناشر : المنشور أو المبعوث .

(٢) جلالة : ناقة ضخمة . سرح :

(٣) الآثام هنا : الوايات . العلات :

سهلة . الدف : الجانب .

الحالات المختلفة . حطت : أسرعت .

لم يرقّ غزله ولا خاض في الخمر ، أما الأعشى فأقبل على اللهو والطرب والعكوف على الخمر والاستماع إلى القيان . فكان طبيعياً أن يسهل الشعر عنده بأكثر مما يسهل عند النابغة ، وأن تظهر فيه رقة الحضارة ونعومتها .

ولا يظهر تأثير الحضارة في سهولة ألفاظه فحسب ، بل يظهر أيضاً في خفة أوزانه وجمال موسيقاها ، وكأنما أثر فيه كثرة استماعه للمغنيات والغناء ، فإذا هو يُحيل شعره أحياناً وأنغاماً خالصة . وهو كثير التنوع في أوزانه يستخدم منها التام والمجزوء ، ويُحسن هذا الاستخدام إلى أقصى الحدود ، إذ كان يقتدر على الإتيان بالألفاظ العذبة والكلمات الرشيقة والقوافي المتمكنة .

على أنه ينبغي أن نلاحظ شيئين ، هما كثرة ما نُحِلّ عليه ، وقد أدّى ذلك إلى دخول ألفاظ فارسية في بعض قصائده ، حَمَل عليه من أجلاها المرزباني في كتاب الموشح ، والذي لا شك فيه أن هذا من صُنْع المتحليين ، ولا يصح أن نحمل على الأعشى بسببه بل نحسب عنه هذا الشعر على نحو ما نحينا عنه القصيدة رقم ٥٥ . أما الشيء الثاني فهو أن الأسلوب عند الأعشى ينفك قليلاً عن صورة الأسلوب الجاهلي ، ولذلك مظهر واضح هو أننا نفتقد عنده الأبيات المفردة التي تدور في الحكم والأمثال ، وكأنما لم تكن لديه مقدرة زهير والنابغة في التركيز وحشد المعاني في الألفاظ القليلة . وربما كان هذا هو سبب كثرة التضمين في أشعاره كقوله في مطلع قصيدته الأولى في ديوانه :

ما بكاء الكبير بالأطلال وسؤالي فهل تردُّ سؤالي
دمنة قفرة تعاورها الصية فُ بريحين من صباً وشمالاً^(١)

فقد جاء بفاعل تردّ في أول البيت الثاني ، ومن ذلك قوله في قصيدته التي يفخر فيها بتغلُّب شيبان على الفرس في يوم ذي قار :

ولله عينا من رأى من عصابة أشدّ على أيدي السعاة من التي^(٢)

(١) الدمنة : آثار الدار . الصبا : ريح جنوبية
لينة . تعاورها : تتداولها .
(٢) السعاة : الذين يسمون في الحرب
ويهيئونها .

أَتْنَا مِنَ الْبَطْحَاءِ يَبْرُقُ بَيْضُهَا وَقَدْ رُفِعَتْ رَايَاتُهَا فَاسْتَقَلَّتِ (١)

وهو يوازن في البيتين بين بنى شيبان وجيوش الفرس ، فيقول ألا سلمت عينا من رأى عصابة بنى شيبان وإنما لأشد على من يثرون الحروب من تلك التي أتتنا من البطحاء تبرق خوذاتها وتحقق راياتها . وواضح أنه فصل بين الصلة والموصول في البيتين ، وكأنه لم يعترف بأن البيت الأول نهاية يقف عندها . وهذا التضمين في شعره أكثر من أن نمثل له ، فليرجع إليه من أراد ، والمهم أنه يدل على انفكاك التعبير عنده ، فهو لا يتم في البيت ، بل يتم في بيت ثان أو أبيات ، ولعل ذلك هو سبب كثرة صيغة التفضيل التي اشتهر بها في شعره ، وذلك أنه حين يبتغي تفضيل شيء على شيء يجعل المفضل عليه مبتدأ متفياً بما ، ثم يسترسل في وصفه ، حتى إذا استوفى ما أراد من هذا الوصف جاء بنجر المبتدأ ، على شاكلة قوله في المعلقة يصف صاحبه وما ينتشر من طيبها :

ماروضةٌ من رياضِ الحَزْنِ مُعْشِبَةٌ خَضْرَاءُ جَادَ عَلَيْهَا مُسْبِلٌ هَطْلٌ (٢)
بُضاحكِ الشمسِ منها كوكبٌ شَرِقٌ مَوْزُرٌ بِعَمِيمِ النَّبْتِ مُكْتَهِلٌ (٣)
يوماً بأطيبَ منها نَشْرَ رائحةٍ ولا بأحسنَ منها إذ دَنَا الأَصْلُ (٤)

فقد بدأ بالمبتدأ وهو الروضة ، ووصفها في بيتين مادحاً جمالها وما تمدها به الأمطار وكيف تضاحك الشمس أزهارها ونباتاتها ، ثم قال إن هذه الروضة على حسنها وشذاها العطر ليست أطيب من صاحبه شذى ولا أبهى منظراً .

وواضح من كل ما قدمنا أن الأعشى يُعَدُّ حلقة مهمة من حلقات الشعر الجاهلي ، وهي حلقة تضيف جديداً واضحاً إلى هذا الشعر سواء في موضوعاته أو في معانيه أو في أحاسيسه أو في سهولة ألفاظه أو في خفة أوزانه وجمال أنغامه وألحانه .

(٣) كوكب : أراد به ما طال من النبات .
شرق : ريان من الماء . وأراد بالمضاحكة
تفتح الأزهار . موزر : لايس إزارا . عميم
النبت : ما اجتمع منه وتكاثر . مكتهل : تام .
(٤) الأصل : جمع أصيل وهو الوقت
قبل الغروب .

(١) البطحاء : موضع يقرب ندى قار .
البيض : الخوذ . استقلت : ارتفعت
وعلت .
(٢) الحزن : ما غلظ من الأرض وارتفع .
وعندهم رياض الحزن أجود وأنضر من رياض
المنخفضات . مسبل هطل : كثير الأمطار .